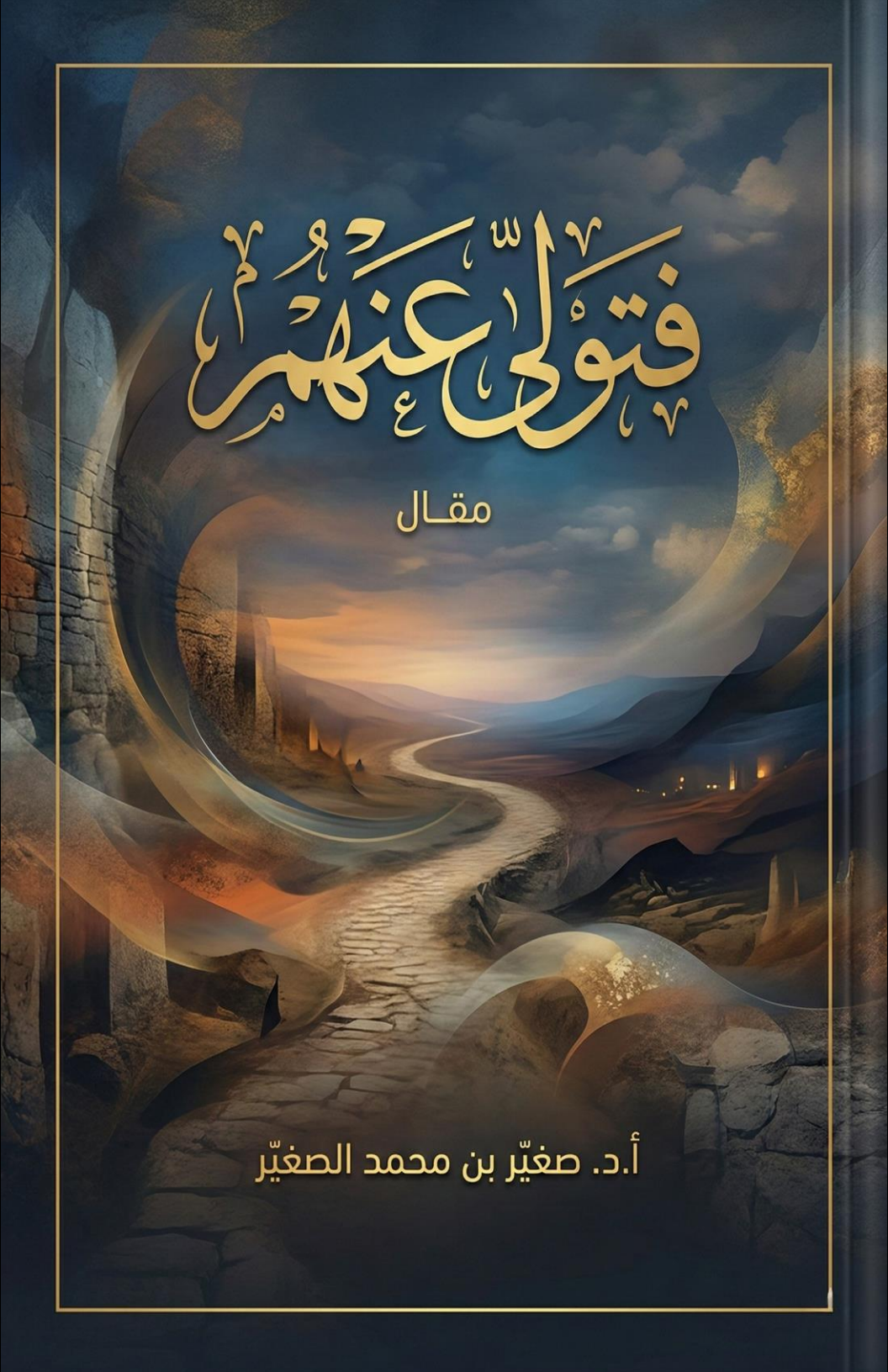
فتولّى عنهم
مقال
أ.د. صغيّر بن محمد الصغيّر

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم لا يَرِدُ مشهدُ التولّي إلا بعد اكتمال البلاغ، ولا يُذكر الفراق إلا وقد سبقته سنونٌ من الصبر، وأعوامٌ من الرحمة، ومحاولاتٌ لا تنقطع لانتشال القلوب من هوّة العناد. فالأنبياء لا يبتعدون قسوةً، ولا ينصرفون يأسًا، ولكنهم يتولّون بعد أن يؤدّوا الأمانة كاملةً، ويقيموا الحجة تامّة، ويستفرغوا وسعهم نصحًا وبيانًا.

أرسل الله نبيَّه صالحًا إلى ثمود، فخاطبهم بلسان القرب، وذكّرهم بنعم الله التي تفيض عليهم، وبالأرض التي مكّنهم فيها، وبالجبال التي ينحتونها بيوتًا آمنين. دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن الطغيان والفساد، وأراهم الآية الباهرة التي طلبوها، ناقةً تشهد بصدق الرسالة. ومع ذلك لم تلن قلوبهم، ولم تخشع نفوسهم، بل تمادوا حتى عقروا الناقة، واستهزؤوا بالإنذار، وأصرّوا على

التكذيب. فلما جاء أمر الله، وأخذتهم الصيحة، وسكنت الأصوات بعد ضجيج الاستكبار، وخمدت حركة الحياة في ديارٍ كانت بالأمس عامرة، وقف صالح -عليه السلام- أمام مشهد النهاية، لا ليشمت، ولا ليعاتب عتاب المنتقم؛ بل ليعلن الحقيقة التي ستظل شاهدًا على التاريخ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.(١)

كلمةٌ تختصر مسيرة دعوة، وتطوي صفحاتٍ من الصبر؛ بلاغٌ تمّ، ونصحٌ أُدِّي، وحجةٌ قامت، ثم تَوَلٍّ بعد أداء الواجب، ليس عن عجز، وعن تخلٍّ؛ بل عن اكتمال مهمة.

---

(١) [الأعراف: ٧٩].

وكذلك شعيب عليه السلام، خطيب الأنبياء، الذي واجه قومًا أفسدوا في الميزان والمكيال، وبخسوا الناس أشياءهم، واستحلّوا الظلم باسم التجارة. دعاهم إلى العدل، وربط لهم بين بقاء النعمة وصدق المعاملة، وحذّرهم أن الظلم طريق الخراب، وأن الطغيان لا يدوم. لكنهم قابلوا البيان بالاستهزاء، والشفقة بالتهديد، والصدق بالسخرية. فلما جاءهم العذاب، وأصبحت ديارهم عبرةً بعد عمران، أعلن شعيب الكلمة التي تقطع العذر وتُسقط الحجة: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾.[1]

---

(١) [الأعراف: ٩٣].

هنا ينتهي دور البلاغ، وتبدأ سنة الجزاء. ليس بعد البيان إلا الاختيار، وليس بعد الإصرار إلا النتائج.

ثم يبلغ المشهد ذروته في سيرة خاتم الأنبياء ﷺ، الذي حمل همَّ هداية قومه حتى كاد الحزن يفتك بقلبه. كان يرى الإعراض، ويسمع التكذيب، ويتلقى الأذى، ومع ذلك يظل قلبه معلّقًا بنجاتهم، وروحه مشفقةً عليهم. حتى خاطبه ربه خطاب التسلية والتثبيت: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾[1]، أي لعلّك مهلكٌ نفسك غمًّا وحزنًا إن لم يؤمنوا.

---

(١) [الكهف: ٦].

وفي موضعٍ آخر: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]، تكاد تقتل نفسك شدة حرصك عليهم.

أي قلبٍ هذا الذي يكاد يفنى لأجل من أعرض عنه؟ وأي رحمةٍ هذه التي تتجاوز حدود الألم الشخصي إلى همّ الهداية العامة؟!

في هاتين الآيتين تتجلى سنة عظيمة: أن الهداية ليست بيد البشر، وأن القلوب لا تُفتح بقوة الحزن، ولا تُغيَّر بشدة الحرص، وإنما تُفتح بإذن الله. فالإيمان اختيار، ومن أعرض بعد وضوح الحجة، فلا يملك أحدٌ أن يُدخل النور إلى قلبٍ أصرّ على إغلاق نوافذه.

---

(١) [الشعراء: ٣].

ثم يأتي التوجيه الرباني الحاسم الذي يعيد التوازن إلى قلب الداعية، ويرسم حدود المسؤولية بوضوح: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.(١)

لقد بلّغت، وذكّرت، وأقمت الحجة، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تمضي في طريقك. لا يحمل الداعية أوزار إعراض غيره، ولا يُكلَّف ما ليس في وسعه، ولا يُطالب أن يستنزف روحه في معركةٍ مع قلوبٍ أغلقت أبوابها.

وهنا تلتقي السنن في صورةٍ بديعة متكاملة. السنة الكونية تقول: إن القلوب بيد الله، وإن من أُقيمت عليه الحجة ثم أعرض، فإنما يتحمّل نتيجة اختياره، وإن الحزن على المعاندين لا يغيّر سنن الله فيهم. والسنة الشرعية تقول: عليك البلاغ والنصح، وعليك الصبر ما

---

(١) [الذاريات: ٥٤].

دام في الصبر موضع، فإذا أديت الأمانة واستُقبلْت بالإعراض والأذى، فلك أن تبتعد غير ملوم؛ حفظًا لقلبك، وصيانةً لنفسك، واستبقاءً لقوتك لما هو أولى.

إن "**فتولّى عنهم**" ليست كلمة انسحاب، بل كلمة اكتمال. ليست إعلان هزيمة، بل شهادة أداء. ليست انقطاع رحمة، بل انتهاء مسؤولية. هي الحد الفاصل بين واجب البلاغ ونتيجة الاختيار، بين ما عليك وما ليس عليك، بين دورك ودور غيرك.

فيا من تُنصَح، انتبه قبل أن يُقال لك: لقد بُلِّغت. استمع قبل أن ينصرف الصوت الصادق. فإن ابتعاد الناصحين ليس أول الخسارة، بل آخرها؛ لأن بقاءهم حولك دليل عناية، وصبرهم عليك علامة رحمة. فإذا تولّوا، بقيت وحدك مع اختيارك.

ويا من تنصح، تعلّم من أنبياء الله. ابذل النصيحة برفق، وأدِّ البلاغ بصدق، واصبر ما وجدت إلى الصبر سبيلًا، فإذا اكتمل البيان وأُغلقت القلوب، فتولَّ وأنت مطمئن، فما أنت بملوم.

نسأل الله قلوبًا تلين للحق إذا سُمِع، ونفوسًا تقبل النصح إذا وُجِّه، وألسنةً تبلغ الأمانة كما ينبغي، وأرواحًا تعرف متى تثبت، ومتى تتولّى بحكمة، حتى لا يُقال يومًا: **لقد بُلِّغتم... ولكنكم لم تحبوا الناصحين..**

وكتبه: صغيّر بن محمد الصغيّر

في ١٤٤٧/٩/١٣هـ